حكاية ولدٍ غزّيٍّ... وبحّار يُدعى غسان 2/2

نصّار إبراهيم

«سمعتك أمس في الغرفة الأخرى تسأل أمك: أأنا فلسطيني أيضاً؟ وحين قالت لك: نعم، خيّم صمت ثقيل في البيت كله، كأن شيئاً كان معلقاً فوق رؤوسنا فسقط، وانفجر دويّه، ثم صمت (...) وحين دخلتَ إليّ، خيل إليّ أنك آتٍ من غارك الخاص، وأن صوتاً ما قد قال لك: اقرأ، فأرعبك في البدء، ولكنه وضع خطاك على بوابة الطريق».
(غسان كنفاني ـ بيروت ـ فضول طفل أم قدر رجل؟ ـ 1967).

(12)

أمسك الولد الغزيُّ البوصلة... وعلى الكتف الثابت ثبّت «بارودة» خاله، ويمّم صوب البحر. غاصت في الرمل قليلا قدماه، وتابع سيره.
سأل البحّار الولد: إلى أين؟
قال: بوصلتي تشير إلى حيفا، ومنها إلى عكا، ومن هناك صعوداً صعوداً حتى صفد.
ـ إذن، انتظر الريح لتأتي، فالأشرعة تحتاج الريح، والبحر عنيد.
قال الولد: سأنتظر البحر، والريح ستأتي يوما، وبوصلتي حاذقة. سأنتظر.
سأل الولد البحّارَ: هل عدت إلى حيفا يوماً؟
قال البحّار: وكيف أعود والبوابة ما زالت تفتح من الجهة الأخرى؟ كيف أعود والقوّادون يقتتلون من يسرق أكثر من صدر الأم؟ كيف أعود وفي البحر قراصنة كما في البر لصوص؟ كيف أعود وغزة بعد السنة الثامنة تلمّ بقاياها، بقايا أطفال شهداء وشهداء أحياء. كنت أعلّم فن الرسم. ومن غزة اختفت الألوان. ولم يبق سوى شقائق نعمان ورماد. بحر من الغرب ومن الشرق بحر ومن الشمال بحر ومن الجنوب كذلك؟ فكيف أعود بلا غزة؟ عذرا فالذاكرة امتلأت بالحزن وبالدمع.
ـ ولكن، في غزة أصوات وأضواء تأتي من تحت الأرض. ودوالي تمد جذوراً تمشي بهدوء نحو الماء الصعب. ألا يعني ذلك شيئاً؟
سار البحّار على الرمل قليلاً. وقبل أن يبحر في عرض البحر، التفت، وبمكرٍ غمز بعينيه وقال: من يدري... من يدري!

(13)

في القدس، كان الوقت صلاة الفجر، والصبح يتنفس. طفل نهض ليصلّي. كان يبسمل باسم الله. هاجمه قطيع ضباع وحشية، أشعل فيه النار، فاشتعل الطفل القدسيّ واحترق كالشمعة حيّاً. فأنست السماء مع الفجر ناراً قدسية، كما آنست في نفق في غزة أيضاً ناراً غزيّة.
في تلك اللحظة ولدٌ يولد.
غسان البحّار يسأل: من هذا الطفل؟
يقول هو أيضاً فلسطيني التكوين؟
وكيف ذلك؟
قال الناس رأينا في يده بوصلة تشير إلى عكا. ينام نهاراً تحت الزيتون، وليلاً يغسل روحه في البحر ويقول: سأجد الطريق إلى صفد مهما طال الليل، مهما امتنع البحر، فالمدّ سيأتي، وبوصلتي لا تكذب، حتى في الأنواء وعتم الليل بوصلتي تحفظ وجهتها.
فكيف يتوه ولدٌ تعلم فن الرسم، وفنّ الموت وفنّ الحياة، وفنّ العناد. يقول هو من غزة، أحياناً ينسى فيقول هو من يافا، الناصرة، بيسان، اليرموك من عين الحلوة أو نهر البارد أو الوحدات. أو لا يذكر... يفكر... ثم ينظر صوب الشرق، ثم يقول أنا من بغداد، دمشق، عمان، الجزائر تونس أو طنجة. من أقصى بحر في الغرب، من مصر، أو من صنعاء. خافيتي قمر، صحراء ونخيل، أنهار، أهرام، لغة، شعر، زيتون لوز رمان وبحّار.
ولدٌ يحمل أحلاماً شاسعة، أحلاماً تشبه... تشبه ماذا؟ تشبه برقوقاً في نيسان! فماذا يكون هذا الولد وأنت العارف؟
دعني أسأل: هل في عينيه ألقٌ، وهل يحمل بوصلة؟ وهل يسكنه العشق للبحر وأصداف البحر ولؤلؤة بيضاء؟ هل يحلم بالقدس. وماذا عن بئر في أعالي الجليل تحرسها شجرة صنّبار. وهل يعرف طعم عنب الخليل. ماذا عن قمر أريحا؟ وهل يحمل بارودة أطول منه قليلاً؟
ـ هو هذا.
إذن، هو ولدٌ كنعانيّ لا ينسى، ويعرف وجهته. لن تخدعه بروق الليل ولا وعود لا تحمله إلى عكا.
همس البحّار: لم يذهب جسدي هدراً، فالولد يمسك بالسارية، وعيناه على الشراع وينتظر الريح ولا ييأس.

(14)

في الشهر الخامس من سنة القتل الخامسة، نهض الولد الغزيّ. كان الندى يغمر بارودة خاله، نظر إليها وتساءل:
ـ لِمَ الدمع صباحاً؟
ـ هو الحزن على سفن تبحر في بحر خاطئ.
ـ كيف؟
ـ هل تذكر مقبرة الشهداء في اليرموك؟
ـ نعم أذكرها. تنام على صدر دمشق. وفي الأعياد وقبل الفجر تمتلئ بأمّهات وباقات الآس وورد بلديّ. كنت لا أميّز بين أمّ فلسطينية وأخرى سورية. وكيف أميّز في غبش الفجر بين وجوه من الطينة ذاتها واللون ذاته والحزن ذاته. يعانقن شواهد شهداء ويقلن القول ذاته: استشهد من أجل فلسطين.
ـ كيف لا أبكي ودمشق تنزف دمها برصاص يأتيها باسم فلسطين. فهل حارت أو ارتبكت بوصلة دمشق يوماً؟
ـ لا أذكر ذلك أبداً، ما أعرفه أن دمشق ما خفضت يوماً سيفاً أو راية. فمن شاطئ غزة نلمحها ومن الكرمل أيضاً. تضيء الأفق كوجه الشام وما خانت عهداً.
ـ لهذا يغمرني الدمع. فكيف لي أن أفهم رصاصة تخطئ خط النار وخط السير باسم «الثورة» أو باسم «فلسطين» أو حتى «باسم الله». فيما عكا واضحة وحيفا والكرمل ويافا وصفد أيضاً. والسفن الراحلة لماذا تغيّر وجهتها نحو الشام؟ ومنارة قدس الأقداس لا تخطئها العين لا في الليل ولا في الفجر. لا في المدّ ولا في الجزْر!؟
صمت الولد الغزيّ. احتضن البارودة فاختلط الندى بالدمع بماء البحر. وفاض الحزن حتى غطى وجه البحر الغزّي الشاسع.

(15)

في سنة الرماد السبعين. نهضت في بيت من طين في مخيم صبرا امرأة كالدهر. صاح الديك صيحته الأولى لم تنكر تلك المرأة رايتها. وصاح الديك صيحته الثانية فامتشقت عود دالية لم يورق بعد. فصاح الديك صيحته الثالثة. حملت صرّة خبز من قمح بعليٍّ وما تيسر من حبّ، وقالت: سأصل إليهم في «عيتا الشعب» و«عَلما». سيعرفني أبنائي. لن ينكروني حتى لو صاح الديك ألف صيحة قبل الفجر وبقي يصيح. فأنا لم أنكرهم يوما أبداً.
ومضت جنوباً. مشت على الدروب المنسيّة بين الأشواك وبين الأشواك البريّة. كانت تمضي ناهضة في عينيها أحلامٌ موغلة في القدَم. بين الأشجار وبين الأشواك سارت قمرين. ومن شاطئ صور هبت أزهار اللَيمون. فانعشت القلبَ.
رفّ القلب حنيناً. اقترب القلب من القلب، فجاء الهمس:
ـ «يمّا أنا هون!».
ابتسمت كالشمس، وضعت صرّتها، بحثت بين شجيرات العلّيق وثنايا الأرض. طار الفَراش ومن بين أغصان الشوك والعلّيق البرّيّ بدا الوجه أليفاً كأيقونة مريم.
ـ «كيفكو يمّا؟».
ـ جائعون قليلاً... لكننا بخير.
ـ هذا خبز من قمح بعليّ. وفي الأرض تجدون الباقي. ديروا بالكو يمّا. وعدتني أن تزرع هذا العود في عكا. فهل ما زلت تذكر وعدك؟
ـ وكيف أنسى وعداً أعطيته لأمي! سيكون ذلك حتى لو لاحقنا كل لصوص الأرض وقراصنة البحر. فهذي الأشواك والشجيرات وعيونك تحمينا.
ابتسمت، غمر الفرح الروح، أرسلت نحو جنوب الجنوب بعضاً من شوق. فلاحت صفد في الأفق المتلألئ همست: أقرئي مني عكا السلام، وغزة أيضا.
استدارت نحو الأشواك وقالت: «يمّا، انتبه كي لا تخطئ. هناك في الجنوب لي ولد يحمل بارودة خالك ويأبى إلا أن يجوب البحر. تذكر هو أخوك. لا تنس ذلك. لا تخطئ».
قالت ذلك واستدارت عائدة. لا تحمل في يدها شيئاً. عادت مشبعة برائحة الأرض ورائحة الشوك البرّيّ ووعد سيحين حين تكتمل الأسطورة.

(16)

ليلاً، جلس الولد الغزيُّ على الشاطئ يعانق بارودة خاله. يحلم بالسفر إلى صفد. دفن قدميه في الرمل الدافئ. وراح يحدق في أبعاد البحر. أرسل روحه نحو النجوم. هل من شراع في هذا الليل؟ سأنتظر مهما طال الليل. قال الولد: سأشعل ناراً. اقترب الموج من الشاطئ. غمر أقدام الولد بالزّبد البحري وبالأصداف. ذهب الموج وعاد. ومع الموج التالي. جاءت يد بحّار تتهادى. كانت تحمل قلماً يشبه مجذافاً، يشبه محراثاً، أو سيفاً، أو مفتاحاً، أو بندقية، أو كل هذا مجتمعاً.
انحسر الموج رهيفاً. قال الموج بعد قليل سأعود. تابع الولد الغزيُّ الموج العائد إلى البحر، فاستعدّ القلم، وخطّ على الرمل:
ـ هل لا يزال الأعمى أعمى والأطرش أطرش؟ وهل ما زلت أيها الولد الغزيّ تحلم بأن تكون ندّاً. وماذا هيأت لذلك؟ والوطن هل ما زال وطناً مكتملاً كالبدر تماماً. أعني هل ما زال قضية؟ أقصد هل ما يزال فكرة نبيلة. وهل ما زلتم في زمن الاشتباك الأول. أم غيّرتم ذلك لاشتباك من نوع آخر؟
توقف القلم وعاد إلى الكفّ الملقاة على الرمل الرطب. ينظر نحو الولد وينتظر.
صمت الولد. بدا في تلك اللحظة مرتبكاً. أخيراً، حمل البارودة وتقدم، ثم «قرفص» أمام الكف التي كانت تشبه قاضٍ يحمل سيف الحسم وتحديد الأقدار. قال الولد:
ـ ماذا أقول أيها القلم النبيّ وأنت العارف. هي ربما طبيعة التكوين هكذا. هناك من ازداد عمىً. وهناك من ازداد طرشاً. وأيضاً هناك من يستعيد بصره ومن يستعيد سمعه كل يوم. بين حول وآخر يأتي نبيّ بلا قبعة أو لحية ويعلّمنا الحق. أو على الأقل يذكّرنا أن النِدّ هو من يستعيد الوطن الضائع. والوطن كما أعرف من أمي قضية تعادل أعماراً. هو موقف. أو لنقل هو خيار. هو ليس مجرد ذاكرة أو ريشة طاووس. الوطن قضية تورّث كاللغة حتى يستقيم اللسان. لهذا فهو لا يزال فكرة. أحياناً تتراجع أو تغيب قليلاً. لكن الدم يعود فيوقظنا ويذكرنا بحقل التاريخ الشاسع. والتاريخ كما تعرف حقلٌ صعبٌ لا تلغيه الكلمات. لهذا ولسبب ما لا أفارق بارودة خالي. قالت أمي: لا تتركها. لا بل قالت لي ذلك أيضاً يد بحّار فلسطينيّ ـ يشبهك تماماً ـ يد تمسك قلماً يشبه مجذافاً، كان ذلك بعدما انفجر كوكب دريٍّ في بيروت. ومعه هوى قمر كفراشة. كان ذلك قبل سنين طويلة. قالت لي: أن أثر الفراشة تلك سيحدث موجاً. وها أنذا أنتظر الموج ليحملني إلى يافا. ومنها إلى حيفا شمالاً. ومن هناك إلى عكا ثم إلى صفد. وفي الروح تبقى أمنية بشربة ماء من بئر على سفح في الجليل. سأحملها لامرأة تنتظر على شاطئ غزة.
ما يحزنني أكثر سؤالك عن زمن الاشتباك. أحياناً تختلط الرؤية. فيشتبك الأخوة. وينسون الاشتباك الأول. فيخطئون. يحزنني ذلك. ولكن ماذا أفعل. في زمن يختلط فيه الدم بالأوراق المالية. في زمن يصبح فيه «الله» سكّينا للذبح. و«النبيّ» يصبح سارق نفط أو تاجر نفط. ولكنني سأنتظر وغيري أيضاً. فالأرض تصحح دورتها والدفة وجهتها. ونحن كذلك.
أطرق القلم. فكان حزنٌ وكان قلقٌ. بعدئذٍ نظر القلم إلى الولد الغزيّ. ومرّ على البارودة في يده. فأضاء الأمل.
عاد الموج. اقترب من الشاطئ. غسل أقدام الولد. ثم مضى مبتعداً. ومعه رحلت يدٌ تحمل قلماً يشبه مجذافاً، يشبه محراثاً، يشبه سيفاً، يشبه سارية، يشبه مفتاحاً، يشبه بندقية، ويشبه أيضاً خريطة تشبه وطناً. رحلت اليد في البحر فبدت سفينة تلاحق نجوم الليل.

(17)

جنوباً في غزة. خرجت من بين الأنقاض العاشرة امرأة كالرّاية. مرّت بين الأطفال. كانوا يفترشون بقايا كتب ودفاتر. فوق الأنقاض ينامون في الصيف وفي القرّ. ما تركوا ما ترك القصفُ الوحشي لهم. جبلوا بعض رماد الأشجار بماء كالدمع لا ينسى. وعلى بقايا نافذة غرسوا دالية. قالت جدتهم ستورق يوماً.
مضت المرأة تحمل قامتها. تمدّ ضفيرتها كناصية الخيل مع الريح وفيها الخير. سارت نحو الشاطئ. كان الوقت غروباً. واجهت البحر. ومن الأفق الشرقيّ لاحت برتقالة كانت تشبه قمراً يتوهج كالشفق. راحت تصعد ببهاء وتمضي غرباً.
عند البحر. على رمل الشاطئ جلست امرأة تعانق الموج بعينيها. قالت: نفسي في شربة ماء من بئر تحرسها شجرة صنّبار على سفوح الجليل. متى سيحين الوعد ويعود الولد الغزيّ. نفسي في شربة ماء غازلها عصفور الشمس. أذكر تلك البئر. تلوح في الوعي كنجمة. كانت هناك قرب التوتة. وحين تزهر أشجار الصنّبار عند الصبح يصبح للماء طعم آخر.
سأنتظر هنا قالت. في غزة نرحل كل مغيب نحو الجليل وأبعد. نغفو على وعد آتٍ. وبعناد نحفر أنفاقا، سيعود الولد الغزيُّ ذات صباح. أو ذات مساء لا فرقَ.
قالت: كنت «أتعربش» فوق التوتة حتى يلوح البحر في الأفق الغربي. وعند الخط الفاصل ما بين الأكوان كانت الشمس تغتسل بماء البحر. كنا نركض نحو البحر نلاحق قرص الشمس. وعلى الرمل الدافئ ننتظر أشرعة البحارة. نسأل من أين البحّارة مع بحّارتنا؟ لا نعرف. قالت أمي: من صور، من صيدا، من طرطوس. وقالت أخرى لا بل أبعد من ذلك.
وفي لحظة عشق بكر يأتينا غناء البحّارة. فنشتعل من الفرح. هذا صوت أبي. صوت أخي. وهذا صوت حبيبي.
في سنة الرّماد. تركتُ التوتة. مشيتُ وأنا أنظرُ خلفي. بقِيَتْ أغصان التوتة تموج كمنديل أخضر حتى ضاعت في الدمع وفي الأفق. قلتُ لأمي: إني عطشى ونفسي في شربة ماء. قالت: سيكون. قلت: أريد ماء من بئري. بكت الأم وقالت: إن شاء الله سيكون. لم أفهم، فقلت: سأنتظر.
قال لي الولد الغزيّ هذا وعدٌ مني. سآتيك بماء من بئر تحرسها شجرة صنّبار. وسأجلس قرب التوتة. هل ما زالت فارعة. هل ما زالت تورق. هل ما زالت تثمر؟
قالت: ما أعرفه أن الصنّبار عنيد. يقاوم حتى الموت ويبقى. له أزهار تشبه وهج الشمس. يعانقه النحل ويشرب من بئر الماء الأولى. فيعطي للماء طعم الصنّبار وطعم الزهر البريّ.
سار القمر نحو الغرب. فيما على الشاطئ امرأة تنتظر ولداً يحمل شربة ماء. قال سيأتي. والولد الغزي الكنعاني الأصل، في العادة، لا يخلف وعدا.

(18)

سار الولد الغزيّ يحمله الشوق إلى وطن مرسوم في القلب وفي العينين يضيء كبوصلة. وعند شاطئ عكا. إلى جانب صخرة تغتسل بماء البحر. هناك أراح الولد في الليل وفي الملح البحري حكايته. تأتي الأمواج وتذهب. وعلى هدهدة الموج وأغاني البحر الأزلية. وفيما القمر يلاحق شفقاً نارياً. نام الولد. احتضن البارودة ونام. كان النورس يحرسه والموج. ومع الفجر وفي لحظة لم يغادر فيها عصفور عشه بعد، اقترب البحر من الشاطئ. داعب أطراف الصخرة. وعاد إلى ذاته. ترك على الشاطئ أعشاباً بحرية، أصدافاً ملونة، وأيضاً بحّاراً لوّحه البحر. كان الفجر ضبابياً. نهض البحّار العارف تفاصيل الأمواج وصخور الشاطئ. قال: على هذا الشاطئ ذكر صخرة عليها نقوش كنعانية. أذكرها. كنا نتسلقها. نطلق صيحات الفرح ونقفز في اليمّ. الصخرة على ما أذكر عاتية. فهل ستذكرني؟
سار البحار. فلاحت في ضوء الشفق صخرة لم تغادر شاطئها يوماً. اقترب البحّار. هي الصخرة ذاتها قال. النقوش ذاتها، سنابل قمح، محراث، هلال وصليب، عناقيد عنب وأوراق زيتون. وفي حضن الصخرة ولد يحضن بارودة وينام كما الجنين في رحم الأم. وجه الولد وجه بحريٍّ. كان رقيقاً وأليفاً وعنيداً. تغطيه الأعشاب والأصداف وضوء القمر.
تأمل البحّار وجه الولد طويلاً. وبعشق الوالد المسح على الوجه. فتح الولد عينيه. وبقوة البحر شدّ على بارودته.
قال البحّار: لا تخف. من أنت؟
نظر الولد بشكّ. مدّ يده كرمح: أنا من هناك من جنوب الجنوب. وأيضاً من هناك من شمال الشمال ومن الشرق أيضاً.
نظر البحّار ولمعت عيناه: أمن غزّة أنت؟ من أمك؟
ـ لا أعرف، إلا أنّني ولدت من نفق.
ـ وماذا تريد في هذا الليل الماكر؟
ـ أبحث عن دالية. قالت لي أمي أن أخي من لبنان سيزرعها ذات شروق في عكا. وستبرعم يوماً وتغطّي جبل الكرمل. سأتسلق الدالية حتى الذروة ومن هناك أرى صفد. سأعود إلى الجليل إلى بئر تحرسها شجرة صنّبار، ومساءً يغتسل فيها القمر، سآخذ شربة ماء لامرأة تنتظر الوعد على شاطئ غزة. تنتظر شربة ماء من بئر كانت لها ذات طفولة. بئر تراقص قمرا وتنام منتظرة على سفوح الجليل.
ـ والمخيم، كيف تركته؟
ـ ما زال الناس يركضون بين الخيمة والأخرى. لقد افترق الاخوة واشتبكوا على جلد الدبّ الذي لم يولد بعد!
ـ على ما أذكر كان هناك فرق بين الخيمة والأخرى؟
ـ كان ذلك في سنة الفجر الأولى. أذكر حين حمل الرجال البنادق فأصبح للخيمة معنى آخر. هذا ما كان. إلا أن الخريطة انحسرت كالجَزْر البحري تماماً. ورأيت الرجال يسلّمون بنادقهم. والخيمة عادت للدمع ولخبز الذاكرة المرّ.
ـ وماذا بعد؟
ـ هي سيرتنا. لا نستسلم أبداً. نولد فنبحث عن أقرب بحر يحملنا إلى عكا. ونعرف أن الدمع وحده لا يكفي. وأن الخيمة إن لم تنهض كالعنقاء تقاتل ستبقى خيمة.
أفاق الولد من غفوته. حمل البارودة. نظر نحو الآفاق الأربعة. كان البحر وكان الليل وصوت الموج يضرب في ضوء القمر صخور الشاطئ. قال: كان هنا بحّار. نظر إلى البحر، واحتضن البارودة بعزيمة بعل كنعانيّ. وراح بصمت ينظر في أبعاد البحر الشاسعة. كانت في الأفق نقطةٌ تشبه شراعا أو يداً تحمل قلماً يشبه مجذافاً، يشبه سيفاً، يشبه محراثاً، يشبه مفتاحاً، يشبه بندقية، يشبه خرسطة تشبه وطناً.

عمر الشريف... وداعاً

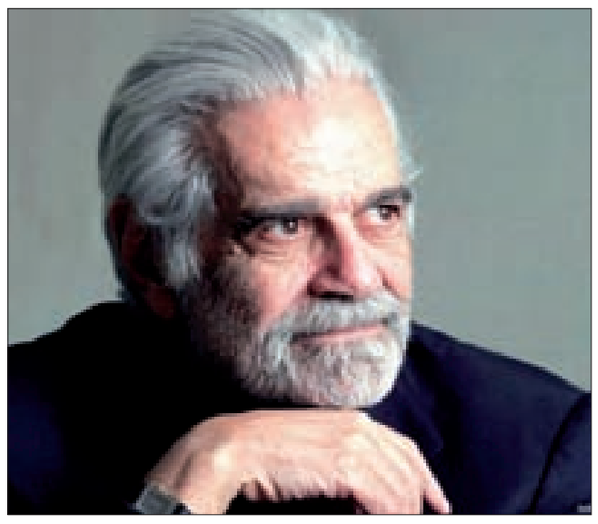

غيّب الموت أمس، الممثل المصري عمر الشريف الذي توفي في القاهرة بسبب أزمة قلبية، عن عمر يناهز 83 سنة، بعد مشوار فنّي حافل قاده إلى العالمية بعد فيلمَي «لورنس العرب» و«دكتور جيفاغو».
وكان المرض اضطرّ الشريف إلى الابتعاد عن الشاشات عام 2012 بعد ظهوره الأخير في الفيلم المغربي «صخرة القصبة».
ونعى الدكتور عبد الواحد النبوي وزير الثقافة المصري الفنان الراحل وقال: «إنّ صدمتنا بوفاة الفنان عمر الشريف كبيرة، وخسارتنا عظيمة، فهو واحد من أشهر من أنجبتهم الساحة الفنية، قدّم روائع من الأعمال السينمائية في منتصف القرن العشرين ليثري بها الشاشة العربية».
ولد عمر الشريف في العاشر من نيسان عام 1932 في الاسكندرية، واسمه الحقيقيّ ميشال شلهوب، من أب لبناني وأمّ لبنانية ـ سورية. لكنه اعتنق الاسلام في العام 1955 ليتزوج من الممثلة المصرية فاتن حمامة التي أنجب منها ابنه الوحيد طارق. ولم يتزوج الشريف مجدّداً بعد انفصاله نهائياً عام 1974 عن فاتن حمامة، وظلّ يقول إنها حبّ حياته.
حصل عمر الشريف عام 2003 على «جائزة الأسد الذهبي» عن مجمل أعماله في مهرجان البندقية السينمائي. وأثناء حياته، أقام في أماكن مختلفة منها فرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا.
بدأ عمر الشريف مشواره في السينما مع المخرج المصري يوسف شاهين في فيلم «صراع في الوادي» عام 1954. ومن أشهر أفلامه في السينما المصرية «صراع في الميناء»، و«إشاعة حبّ»، و«في بيتنا رجل»، و«نهر الحبّ»، و«سيدة القصر».

... وسامي العدل

غيّب الموت فجر أمس، الفنان المصري سامي العدل عن عمر يناهز 68 سنة، بعد صراع مرير مع المرض. وأعلن المنتج محمد العدل وفاة شقيقه سامي في المركز الطبي العالمي، بسبب هبوط حاد في الدورة الدموية نتيجة ضعف في عضلة القلب، وشُيّع جثمانه من مسجد آل رشدان في «مدينة نصر».
ولد سامي العدل في الثاني من تشرين الثاني عام 1946 في قرية كفر عبد المؤمن، مركز دكرنس، محافظة الدقهلية في دلتا مصر، وتخرّج في المعهد العالي للفنون المسرحية. وينتمي إلى عائلة فنية، فأشقاؤه المنتجان محمد وجمال العدل والسيناريست مدحت العدل، وهو صاحب شركة إنتاج كبيرة في مصر هي «العدل غروب».
بدأ العدل رحلته مع الفن من خلال فيلم «كلمة شرف» عام 1972 مع الفنان الراحل فريد شوقي، ثم شارك بمجموعة من الأدوار الثانوية حتى قدم مسلسل «السمّان والخريف» الذي يُعد شهادة ميلاده الفنية الحقيقية.
اقتحم العدل عالم الإنتاج السينمائي، وأسس شركة «العدل غروب للإنتاج الفني»، وعام 1987 أنتج الفيلم الأول بعنوان «حقد امرأة»، لتتوالى بعد ذلك الأعمال الإنتاجية التي شارك في معظمها بأدوار تمثيلية.
اشتهر الفنان الراحل بدور حمامة السلام، وعقد لقاءات المصالحة بين الفنانين، وكان دائماً مسانداً للفنانين الشباب وداعماً لهم مثل أحمد السقا وكريم عبد العزيز ومحمد سعد.

المرصد

سحر الممثل السوري طاغٍ في الدراما العربية

■ هنادي عيسى

بعد اشتداد الأزمة الأمنية والسياسية في سورية، اضطرّ عدد كبير من نجوم الدراما السورية إلى مغادرة بلدهم للحصول على فرصة في الأعمال العربية. وطبعاً، وجد معظمهم مبتغاهم في مصر ولبنان. ومع هذه الهجرة الفنية، انطلق ما يسمى الدراما العربية، أي تلك الخلطة السحرية التي جمعت بين الممثلين السوريين والمصريين واللبنانيين. وأبرز هذه الأعمال كان مسلسل «روبي»، من بطولة مكسيم خليل وسيرين عبد النور وأمير كرارة، ثم توالت الأعمال مثل «الإخوة»، «علاقات خاصة»، وغير ذلك من المسلسلات التي لاقت قبولاً واسعاً لدى المشاهدين العرب.
ولا شك أنّ خبرة الممثلين السوريين والمصريين أعمق بكثير من اللبنانيين لقلة الخبرة والاحترافية ونظراً إلى أمور أخرى منها الانتاج القليل، مع التنويه بخبرات بعض الممثلين لا سيما المخضرمين.
أما هذه السنة، فبدا حضور الممثل السوري طاغياً في كل الأعمال العربية التي شارك فيها. فاحتراف دينا قندلفت في «24 قيراط» يدلّ على أنها تتعب على دورها وتتعمق في تفاصيل الشخصية، ولو كان النصّ هزيلاً. ومثلها طغى تيم حسن على صورة مسلسل «تشيللو»، إذ اعتُبر ساحراً للنساء بوسامته وإبداعه في التمثيل، على رغم براعة نادين نسيب نجيم ويوسف الخال في دوريهما. أما باسل خياط الذي يشارك في ثلاثة مسلسلات، فقد استطاع عبر شخصية «المحامي يحيى» في مسلسل «طريقي» إلى جانب شيرين عبد الوهاب، أن يكون رائعاً في أداء دوره، وكثيراً ما شبّه برشدي أباظة.
طبعاً هناك الاعمال السورية البحتة التي لاقت إعجاب الناس مثل «غداً نلتقي» من بطولة كاريس بشار ومكسيم خليل. «بانتظار الياسمين» لسلاف فواخرجي التي أبدعت أيضاً في «حرائر»، وكذلك سلوم حداد وعبد المنعم عمايري في «العراب» وشكران مرتجى وأمل عرفة في «دنيا 2015»، وغير ذلك من الاعمال التي أثبتت أن الممثل السوري هو الرقم الصعب.

دراما الشباب ما زالت تسير إلى الوراء... وأبطالها يستجدون الظهور على الشاشة

آمنة ملحم

في وقت بدأ صنّاع الدراما يدركون أفول عصر النجم الأوحد، ويلتفتون إلى مواهب شبابية مصقولة بدراسة أكاديمية من المعهد العالي للفنون المسرحية، بدأت تحجز لنفسها مساحة هامة في الساحة الدرامية السورية، وتسجل بصمة أولية للصعود بخطى ثابتة في عوالم الدراما بشهادة صنّاعها، نجد البعض منهم لا يزالون يرزحون تحت رغبات المنتجين وتجار الدراما.
فيكفي البعض أن يجمعوا ثلّة من الفنانين الشباب، أمام كاميرا مخرج شاب، ليؤدّوا «حدّوتة» خطّها أيضاً أحد الشبّان، ليعلنوا عن انطلاقهم في تصوير عمل درامي، تحت مسمّى الدراما التي اصطنعها هؤلاء وأطلقوا عليها «دراما الشباب». ضاربين عرض الحائط بكل ما قد تحمله هذه التسمية من مسؤوليات تجاه من يتوجّهون إليهم كالشريحة الأهم على الإطلاق في المجتمع.
وفي رمضان، كان هناك نموذج لهذه الدراما التي تجلّت بمسلسل «وعدتني يا رفيقي»، الذي ادّعى صنّاعه أنه استكمال لمسلسلي «أيام الدراسة» و«فتّت لعبت»، ليدرك المشاهد ومن حلقة واحدة قد يتابعها، مدى السذاجة التي صبغت نصّ العمل. فلا يستطيع إكمال تلك الحلقة حتى...
الشبان والشابات في العمل اتّسموا بسذاجة الأفكار والتهريج المصطنع، ليؤكد العمل استكمال سلسلة الاستسهال بضحكة المشاهد وهمومه، لا سيما في ظل الأزمة التي يعيشها والتي، إن كان بحاجة إلى فسحة ضحك، فبالتأكيد لا يمكن أن تكون ضحكة مشوّهة يظنّ صنّاعها أنّهم استطاعوا رسمها حقاً، أو أنهم رفّهوا عن أنفس متابعيهم. فحتى فئة المراهقين التي يتوقع بعض صنّاع هذه الدراما بأنها موجهة إليهم، وقد تلفت نظرهم، لن يقبلوا بدرجة كبيرة لبّ العمل القائم على تواعد أربعة شباب على الزواج في يوم واحد، ورحلة تخطّي معوقات ذاك الزواج الجماعيّ. ليدركوا أن هؤلاء الشبان تواعدوا في عمر الطفولة، إذ لم تكن أعمارهم تزيد عن عشر سنوات. فأيّ طفل هاهنا همّه في هذا العمر التفكير بالزواج والتواعد على عقده جماعياً مع أصدقاء حارة شعبية قد يتغيّر سكانها في أي لحظة معيشية؟

وفي محاولة لطرق أبواب الشباب، دافع الفنان يحيى البيازي «أحد أبطال وعدتني يا رفيقي»، عن هذا النوع من الدراما بذريعة أنها تؤمّن فرصة الظهور على الشاشة لبعض الفنانين الشباب، بغضّ النظر عن «الحدوتة» أو الرسالة التي قد يحملها العمل. فلِمَ لا تعطى الفرصة برأيه للشباب لتقديم ما لديهم وشقّ طريقهم بأنفسهم وصنع تجاربهم الشبابية التي تقدّمهم على الشاشة؟
لتؤكد الفنانة الشابة ليا المباردي أنّها لا تمانع الدخول في الأعمال الشبابية شريطة أن يحمل نصّ العمل رسالة هامة للمشاهد، ويقدم إضافة إلى ظهورها على الشاشة. لكنها ترفض التعميم بضعف هذا النوع من الأعمال. وترى أنها غالباً موجّهة إلى فئة المراهقين لا إلى كافة أفراد المجتمع، لا سيما مع ضعف الموازنة التي ترافق هذا النمط من المسلسلات.
وبذلك، وإن برّرنا لفئة الشباب المهضومة حقوقهم في الظهور على الشاشة الخوض في هذا النوع من الأعمال، فنلقي اللوم هاهنا على بعض الفنانين ذوي الأسماء في الساحة، بقبولهم هذا النمط من الأعمال التي قد تشوّه صوَرهم أمام الجمهور، وتدفع إلى التساؤل حول جدوى ذلك الظهور، أم أنّ الدراما أضحت مجرّد «أكل عيش يا بيه»؟!
وعلى رغم تلك المبرّرات التي يختبئ وراءها البعض، نجد آخرين، وعلى رغم ضعف فرصهم على الشاشة، لا يقبلون بهذه الأعمال. كالفنانة أمية ملص، إذ تجد في تلك الأعمال استخفافاً بالفنّ، وتؤكد أنّ أيّ عمل درامي لا بدّ أن يكون مشروعاً جدّياً في المهنة، ويبتعد عن الاستهانة بها.
لم يعد يسعنا القول سوى أنّ تلك الأعمال التي يقال عنها شبابية، أكّدت أنها لا تزال تشكل عثرة في وجه ذلك المسمّى الذي من المفترض أن يلعب دوراً هاماً على الساحة الدرامية مع مواهب شابة، ذات قدرات لا يستهان بها في الوسط الدراميّ السوريّ. فمتخرّجو المعهد العالي للفنون المسرحية يملكون قدرات أكبر من أن تستثمر في أعمال تمرّ مرور الكرام على الشاشة، من دون أي أثر قد تطبعه في ذهن المشاهد، وتسير إلى الوراء بدلاً من التقدّم إلى الأمام.